وما النصر إلا من عند الله

جمع وترتيب

من خطب ومحاضرات فضيلة الشيخ

أبي عبد الله محمد بن سعيد رسلان

حفظه الله تعالى

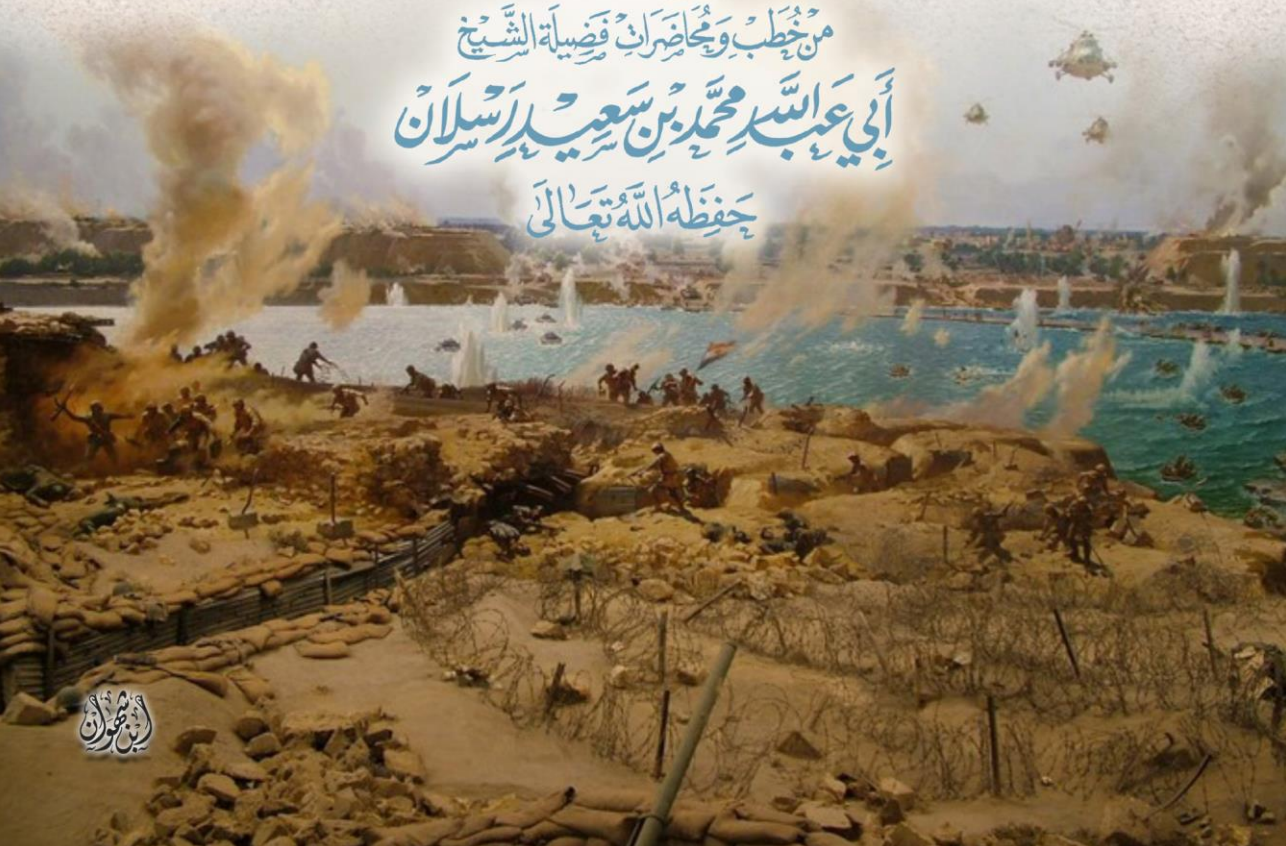

ابن عثمان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

- **أَمَّا بَعْدُ:**

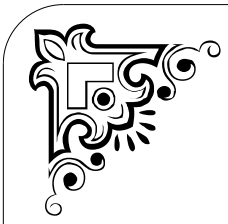

الْإِسْلَامُ دِينُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي أَرْضِهِ

فَإِنَّ الْإِسْلَامَ هُوَ دِينُ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الَّذِي ارْتَضَاهُ لِخَلْقِهِ أَجْمَعِينَ، وَأَرْسَلَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، وَنَبَّأَ بِهِ النَّبِيِّينَ، وَأَنْزَلَ بِهِ الْكُتُبَ الْمُطَهَّرَةَ؛ لِهِدَايَةِ الْخَلْقِ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

وَفِي تَعْرِيفٍ جَلِيلٍ جَمِيلٍ لِدِينِ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ.. يَقُولُ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي تَعْرِيفِ دِينِنَا الَّذِي مَنَّ بِهِ عَلَيْنَا رَبُّنَا وَأَرْسَلَ بِهِ إِلَيْنَا نَبِيَّنَا.. يَقُولُ: الْإِسْلَامُ: «هُوَ الصِّدْقُ مَعَ الْحَقِّ، وَالْخُلُقُ مَعَ الْخَلْقِ».

وَلَوْ أَنَّكَ نَظَرْتَ فِي هَذَا التَّعْرِيفِ نَظْرَةً مُتَأَنِّيَةً لَظَهَرَ لَكَ أَنَّ الْإِسْلَامَ بَاطِنٌ وَظَاهِرٌ، أَنَّ الْإِسْلَامَ عَقِيدَةٌ وَشَرِيعَةٌ، أَنَّ الْإِسْلَامَ إِيمَانٌ وَعَمَلٌ، أَنَّ الْإِسْلَامَ جَامِعٌ لِجَمِيعِ نَشَاطَاتِ الْحَيَاةِ؛ نَفْسِيَّةً وَعَمَلِيَّةً، ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً.

الْإِسْلَامُ: «الصِّدْقُ مَعَ الْحَقِّ»: وَهَذَا أَمْرٌ يَتَعَلَّقُ بِالْقَلْبِ وَالرُّوحِ وَالْجَنَانِ وَالْفُؤَادِ، «وَالْخُلُقُ مَعَ الْخَلْقِ»: وَالْخَلْقُ هَاهُنَا -كَمَا تَرَىٰ- قَدْ جِيءَ بِـ (ال) فِيهَا -هَكَذَا- وَكَأَنَّهَا تَذْهَبُ إِلَىٰ أَنَّ جِنْسَ الْخَلْقِ مَعْنِيٌّ بِهَذَا التَّعْرِيفِ بِهَذَا اللَّفْظِ الْجَلِيلِ وَهَذَا الْمَعْنَىٰ الشَّامِلِ الْجَمِيلِ.

الْإِسْلَامُ: «هُوَ الصِّدْقُ مَعَ الْحَقِّ، وَالْخُلُقُ مَعَ الْخَلْقِ»، فَحَوَىٰ نَشَاطَاتِ الْحَيَاةِ جَمِيعَهَا، وَحَازَهَا مِنْ أَقْطَارِهَا، وَلَمْ يَدَعْ فِيهَا شَاذَّةً وَلَا فَاذَّةً وَلَا شَارِدَةً وَلَا وَارِدَةً إِلَّا وَانْتَظَمَهَا فِي سِلْكِهِ، وَأَحَاطَ بِهَا فِي إِطَارِهِ.

وَهَذَا الدِّينُ الْعَظِيمُ الَّذِي مَنَّ بِهِ رَبُّنَا عَلَىٰ الْبَشَرِيَّةِ مُنْذُ خَلَقَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ آدَمَ هُوَ دِينٌ وَاحِدٌ فِي عَقِيدَتِهِ، فِي يَقِينِهِ، فِي اسْتِسْلَامِ الْقَلْبِ بِهِ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، دِينٌ وَاحِدٌ؛ وَ «**الْأَنْبِيَاءُ أَخَوَاتٌ لِعَلَّاتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّىٰ وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ**»(١)، يَقُولُ ذَلِكَ نَبِيُّنَا ﷺ: «**الْأَنْبِيَاءُ أَخَوَاتٌ لِعَلَّاتٍ**»: وَأَخَوَاتُ الْعَلَّاتِ: مَنْ كَانَ أَبُوهُمْ وَاحِدًا وَأُمَّهَاتُهُمْ شَتَّىٰ، فَكَذَلِكَ يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «**الْأَنْبِيَاءُ أَخَوَاتٌ لِعَلَّاتٍ**»: تَخْتَلِفُ شَرَائِعُهُمُ الْعَمَلِيَّةُ عَلَىٰ حَسَبِ اخْتِلَافِ الْأَعْصَارِ وَحَاجَاتِ النَّاسِ، وَأَمَّا أَصْلُ الدِّينِ فَوَاحِدٌ، وَهُوَ اسْتِسْلَامُ الْمَرْءِ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَإِخْلَاصُ الْعِبَادَةِ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ صِدْقًا وَانْتِمَاءً حَقًّا، فَهَذَا مَعْنَىٰ قَوْلِ نَبِيِّنَا ﷺ.

اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ارْتَضَىٰ الْإِسْلَامَ الْعَظِيمَ لِخَلْقِهِ دِينًا، وَأَرْسَلَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، وَنَبَّأَ بِهِ النَّبِيِّينَ، وَأَنْزَلَ بِهِ الْكُتُبَ، كُلُّهَا مُتَّفِقَةٌ مُجْمِعَةٌ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ وَاحِدٌ، عَلَىٰ أَنَّ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ لَا تَعَدُّدَ يَشْمَلُهُ، وَلَا تَجْزِئَةَ تَلْحَقُهُ، وَأَنَّ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَهُوَ مِنَ الْكَافِرِينَ، وَمَنِ اعْتَقَدَ ذَلِكَ فَهُوَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

وَأَمَّا الَّذِينَ وَحَّدُوا اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ذَاتًا وَصِفَاتٍ وَأَفْعَالًا، وَالَّذِينَ دَانُوا للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ بِالْوَحْدَانِيَّةِ فَهُمْ أَهْلُ النَّجَاةِ وَأَهْلُ السَّعَادَةِ دُنْيَا وَآخِرَةً.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٢٤)، وأحمد (٩٦٣٠)، وصححه العلَّامة أحمد شاكر رَحِمَهُ اللهُ في «عمدة التفسير» (١/ ٦٠١).

وَأَمَّا الَّذِينَ لَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ وَلَمْ يَعْتَقِدُوهُ فَهُمْ أَهْلُ الْكُفْرَانِ وَأَهْلُ الْخُسْرَانِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ، كَمَا بَيَّنَ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي حَقِّ أُولَئِكَ الْمُشْرِكِينَ.

وَهَذَا الدِّينُ الْعَظِيمُ الَّذِي أَرْسَلَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ كَالْجَسَدِ الْحَيِّ، وَالْجَسَدُ الْحَيُّ لَهُ أَعْضَاؤُهُ وَلَهُ مُكَوِّنَاتُهُ، وَلَهُ أَجْزَاؤُهُ، وَهَذِهِ الْأَجْزَاءُ وَالْمُكَوِّنَاتُ وَالْأَعْضَاءُ تَخْتَلِفُ بَيْنَهَا قِيمَةً وَأَهَمِّيَّةً، وَتَخْتَلِفُ بَيْنَهَا حَيَوِيَّةً وَنِسْبَةً، وَلَيْسَتْ جَمِيعُ أَجْزَاءِ الْجَسَدِ الْحَيِّ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ الْجَسَدِ بِنِسْبَةٍ وَاحِدَةٍ، فَلَيْسَ الْبَصَرُ كَالْأُصْبُعِ، وَلَيْسَ الْجِلْدُ كَالْمُخِّ، وَلَيْسَ الْقَلْبُ كَسَائِرِ أَعْضَاءِ الْبَدَنِ أَهَمِّيَّةً وَحَيَوِيَّةً وَنِسْبَةً وَانْتِمَاءً، وَكَذَلِكَ الْإِسْلَامُ الْعَظِيمُ كَالْجَسَدِ الْحَيِّ لِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهُ فِيهِ مَوْضِعُهُ إِذَا مَا جُعِلَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ أَصَابَ الْخَلَلُ النَّاظِرَ إِلَىٰ دِينِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَوَقَعَ مِنَ الزَّيْغِ وَالضَّلَالِ فِي دِينِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ بِحَسَبِ مَا وَقَعَ فِي ذَلِكَ مِنْ ذَلِكَ.

وَلِذَلِكَ لَمَّا جَاءَ الرَّسُولُ ﷺ.. أَرْسَلَهُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بِقَوَاعِدَ عَامَّةٍ وَأُصُولٍ شَامِلَاتٍ مَا وَرَاءَهَا مُحِيطَاتٍ بِمَا خَلْفَهَا، حَتَّىٰ إِنَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ الْكُبْرَىٰ لَمْ تُفْرَضْ إِلَّا بَعْدَ حِينٍ، وَوَقَعَ الْجِلَادُ وَالصِّرَاعُ وَتَمَّ النِّزَاعُ وَالْجِهَادُ وَالْكِفَاحُ بَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ وَصَحْبِهِ مِنْ جِهَةٍ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْكَافِرِينَ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَىٰ؛ مِنْ أَجْلِ أَمْرٍ وَاحِدٍ فِي بَدْءِ الْأَمْرِ وَهُوَ أَنْ يَشْهَدَ الْقَوْمُ بِحَقٍّ أَنَّهُ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ الْجَامِعَةِ الْفَاذَّةِ الَّتِي قَدْ حَوَتْ مَا وَرَاءَهَا مِنْ تَعَالِيمِ دِينِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ جَاءَ مُحَمَّدٌ ﷺ وَجَاءَ مَنْ سَبَقَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ مِنْ

أَجْلِ إِعْلَانِ الدَّيْنُونَةِ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ فِي أَرْضِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، مِنْ أَجْلِ أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ عَبْدًا للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَحْدَهُ، فَإِذَا مَا كَانَ الْإِنْسَانُ للهِ عَبْدًا كَانَ لِلْكَوْنِ سَيِّدًا، وَإِذَا مَا كَانَ الْإِنْسَانُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَبْدًا بِصِدْقٍ فَقَدْ تَحَرَّرَ مِنْ جَمِيعِ عُبُودِيَّاتِ قَلْبِهِ وَرُوحِهِ وَجَسَدِهِ لِغَيْرِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

النَّاسُ أَمَامَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ سَوَاسِيَةٌ، كُلُّهُمْ عَبِيدٌ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَيَتَمَيَّزُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ بِمِيزَاتٍ آتَاهُمُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ إِيَّاهَا، وَاللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ يُؤْتِي مَنْ يَشَاءُ مَا يَشَاءُ كَمَا يَشَاءُ وَكَيْفَمَا يَشَاءُ وَوَقْتَمَا يَشَاءُ وَلِعِلَّةٍ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ.

جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ وَجَاءَ مَعَهُ ﷺ الْهُدَىٰ وَدِينُ الْحَقِّ..

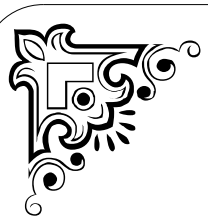

ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً تُنْصَرُوا!

اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ أَخْبَرَ بِالْقَوَاعِدِ الْعَامَّةِ عَلَىٰ لِسَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ كِتَابًا وَسُنَّةً، وَأَخَذَ بِهَا الْأَصْحَابُ رضي الله عنهم فَعَقَدُوا عَلَيْهَا قُلُوبَهُمْ، وَجَعَلُوهَا نُصْبَ أَعْيُنِهِمْ، وَلَمْ يَحِيدُوا عَنْهَا لَا ظَاهِرًا وَلَا بَاطِنًا، فَأَجَاءَهُمُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ إِلَىٰ بَرِّ السَّلَامَةِ وَإِلَىٰ مَرْفَأِ[1] الْأَمَانِ.

وَأَمَّا إِذَا مَا تَخَلَّتِ الْأُمَّةُ فِي مَرْحَلَةٍ مِنْ مَرَاحِلِ تَارِيخِهَا عَنِ الْأُصُولِ الْعَامَّةِ، وَأَخَذَتْ فِي بُنَيَّاتِ الطَّرِيقِ وَأَخَذَتْ بِهَيْشَاتِ الْأَسْوَاقِ[2]، وَأَخَذَتْ تُفَرِّعُ عَلَىٰ الْأُصُولِ فُرُوعًا تَجْعَلُهَا أُصُولًا، وَضَلَّتْ بِذَلِكَ ضَلَالًا مُبِينًا فَهُوَ الضَّلَالُ دُنْيَا وَآخِرَةً، وَهُوَ الِانْدِحَارُ وَالِانْكِسَارُ؛ لِأَنَّ رَبَّكَ جَلَّ وَعَلَا أَبَىٰ إِلَّا أَنْ يَكُونَ النَّصْرُ إِلَّا لِمَنْ نَصَرَ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٤٠].

وَالَّذِينَ يَنْصُرُونَ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ هُمُ الَّذِينَ يُقِيمُونَ دِينَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ،

---

(١) مَرْسَىٰ.

(٢) «هَيْشاتُ الأسواق»: هي ارتفاعُ الأصواتِ، والصَّخبُ واللَّغَطُ، والمُنازعاتُ والفِتنُ التي فيها.

يَدْخُلُونَ فِي الْإِسْلَامِ كَافَّةً كَمَا أَمَرَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ فِي قَوْلِهِ جَلَّوَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ [البقرة: ٢٠٨] يَعْنِي: ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ أَجْمَعُونَ، ادْخُلُوا جَمِيعًا فِي دِينِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، أَوْ عَلَىٰ الْمَفْعُولِيَّةِ حَالًا؛ فَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَقُولَ: إِنَّهَا حَالٌ لِلْفَاعِلِ فَقَوْلٌ، وَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَقُولَ: هِيَ حَالٌ لِلْمَفْعُولِ فَآخَرُ.

وَإِذَنْ؛ ﴿ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ يَعْنِي: فِي جَمِيعِ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ وَعَقِيدَتِهِ، وَلَا تَدَعُوا شَيْئًا مِنْ دِينِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ إِلَّا وَدَخَلْتُمْ فِيهِ اعْتِقَادًا وَتَطْبِيقًا وَعَمَلًا.

﴿ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾، فَلَا تُجَزِّئُوا الْإِسْلَامَ أَجْزَاءً وَلَا تُبَعِّضُوهُ أَبْعَاضًا فَتَأْخُذُونَ -حِينَئِذٍ- بِمَا يَلَذُّ وَمَا يَرُوقُ لِأَعْيُنِكُمْ، وَتُهْمِلُونَ مَا لَا يَلِيقُ بِحَيَوَاتِكُمُ الَّتِي قَدْ تَدَنَّتْ بِمُوَاضَعَاتِ حَيَاةٍ قَدِ اسْتُمِدَّتْ مِنْ غَيْرِكُمْ مِمَّنْ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ رَبًّا، وَلَا بِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَلَا بِمُحَمَّدٍ ﷺ نَبِيًّا وَرَسُولًا.

﴿ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ أَيِ: ادْخُلُوا جَمِيعًا فِي دِينِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا يَتَخَلَّفَنَّ مِنْكُمْ عَنِ الدُّخُولِ فِي دِينِ اللهِ أَحَدٌ وَلَا وَاحِدٌ.

أَوْ: ﴿ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾: فِي جَمِيعِ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ مَعَ عَقِيدَتِهِ، فَلَا تَتْرُكُوا شَيْئًا مِمَّا أَمَرَكُمْ بِهِ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ إِلَّا وَأَخَذْتُمْ بِهِ.

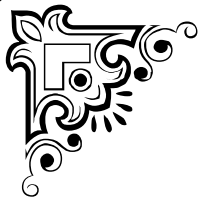
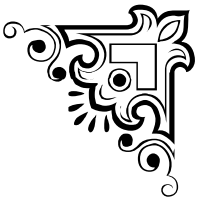

زُهُوقُ الْبَاطِلِ وَنَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ

اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ أَرْسَلَ مُحَمَّدًا ﷺ وَجَاءَتِ الْأُصُولُ الْعَامَّةُ، وَالرَّسُولُ ﷺ مِنَ الْيَوْمِ الْأَوَّلِ بَلْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَحَقَّقَ الْأَمْرُ فِي وَاقِعِ الْحَالِ تَحَقُّقًا ظَاهِرًا يَقُولُ وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ -وَكَانَ قَدْ قَرَأَ كُتُبَ الْأَقْدَمِينَ- يَقُولُ لِلنَّبِيِّ الْأَمِينِ ﷺ.. وَالنَّبِيُّ ﷺ لَا يَدْرِي بَعْدُ مَا الَّذِي نَابَهُ، وَمَا الَّذِي قَدْ نَزَلَ بِجَنَابِهِ، وَأَخَذَتْ بِهِ خَدِيجَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا إِلَىٰ وَرَقَةَ، فَلَمَّا حَكَىٰ لَهُ الْمُخْتَارُ ﷺ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ بَدْءِ الْوَحْيِ قَالَ وَرَقَةُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: «قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ، لَئِنْ أَدْرَكَنِي يَوْمُكَ لَأَنْصُرَنَّكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا»(١)؛ لِأَنَّ وَرَقَةَ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ الْقَاعِدَةَ الْعَظِيمَةَ الَّتِي هِيَ مَبْنَىٰ هَذَا الْعَالَمِ، وَهِيَ الْمِحْوَرُ الَّذِي يَدُورُ حَوْلَهُ الْوُجُودُ.. هَذِهِ الْحَقِيقَةُ هِيَ الصِّرَاعُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ.

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح: كيف كان بدء الوحي إلىٰ رسول الله ﷺ؟ (٣)، ومسلم في الصحيح: كتاب الإيمان: باب بدء الوحي إلىٰ رسول الله ﷺ: (١٦٠)، من حديث: عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، إلا أنه بلفظ: «...، **وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا**»، ليس فيه زيادة: «...، **قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ**، ...»، وإنما أخرجها ابن إسحاق في السيرة رواية زياد البكائي: (١/ ٢٣٨) ورواية يونس بن بكير: (ص:١٢٢)، وابن جرير الطبري في التاريخ: (٢/ ٣٠٢)، من حديث: عُبيد بن عمير بن قَتَادة الليثيّ، مرسلا.

وَالنَّبِيُّ ﷺ فِي هَذِهِ الْحَقِيقَةِ يَأْتِيهِ بَيَانُ رَبِّهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾ [الإسراء: ٨١].

إِذَنْ؛ هَذِهِ حَقِيقَةٌ شَرْعِيَّةٌ وَكَوْنِيَّةٌ مَعًا، كَمَا أَنَّ الشَّمْسَ تُشْرِقُ مِنْ هَاهُنَا وَتَغْرُبُ هَاهُنَا، كَمَا أَنَّ النَّهَارَ يَطْلُعُ مِنْ هَاهُنَا، وَكَمَا أَنَّ اللَّيْلَ يُدْبِرُ مِنْ هَاهُنَا، كَذَلِكَ يَكُونُ الْأَمْرُ فِي قَوْلِ رَبِّنَا جَلَّ وَعَلَا، بَلْ هَذَا أَوْضَحُ مِنْ هَذَا؛ فَهَذَا كَلَامُ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ: ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾.

وَاللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ الْعَظِيمِ بَيَانًا وَتَوْضِيحًا: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٨].

انْظُرْ إِلَىٰ قَوْلِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ ﴾، لَمْ يَقُلْ: بَلْ نَدْفَعُ أَوْ نَسُوقُ، بَلْ هُوَ الْقَذْفُ بِكُلِّ مَا فِي الْقَذْفِ مِنْ عُنْفٍ وَشِدَّةٍ، ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ ﴾.

وَانْظُرْ إِلَىٰ اسْتِخْدَامِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ لِحَرْفِ الْجَرِّ (عَلَىٰ) مَعَ مَا يُفِيدُهُ مِنَ الِاسْتِعْلَاءِ، مَعَ مَا يُفِيدُهُ مِنَ الْعُلُوِّ وَالشُّمُوخِ، يَقُولُ رَبُّنَا جَلَّ وَعَلَا: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ ﴾: وَالدَّمْغُ: هُوَ شَجُّ عَظْمِ الرَّأْسِ لِلْوُصُولِ إِلَىٰ حَقِيقَةِ الدِّمَاغِ، ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ جَعَلَ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ قَائِمَةً فِي كِتَابِهِ الْعَظِيمِ، وَجَعَلَهَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ قَائِمَةً فِي دُنْيَا اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَلَكِنِ النَّاسُ يَسْتَعْجِلُونَ، وَاللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ لَا يَعْجَلُ لِعَجَلَةِ أَحَدٍ.

وَاللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ هُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ، يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَحْكُمُ مَا يُرِيدُ وَقْتَمَا يَشَاءُ وَوَقْتَمَا يُرِيدُ.

اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ لَا تَسْتَفِزُّ فِعْلَهُ -سُبْحَانَهُ سُبْحَانَهُ- أَهْوَاءُ النَّاسِ وَلَا أَحْوَالُهُمْ، بَلِ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَحْكُمُ مَا يُرِيدُ.

وَهَذِهِ الْحَقِيقَةُ الْمُقَرَّرَةُ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.. هَذِهِ الْحَقِيقَةُ الثَّابِتَةُ ثَبَاتَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ بَلْ هِيَ أَثْبَتُ.. هَذِهِ الْحَقِيقَةُ الْمَسُوقَةُ فِي كِتَابِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَلَىٰ لِسَانِ النَّبِيِّ ﷺ قُرْآنًا يُتْلَىٰ فِي الْمَحَارِيبِ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ: ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾، هِيَ بُشْرَىٰ مِنْ بُشْرَيَاتِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لِلْمُؤْمِنِينَ، لِأَصْحَابِ الْحَقِّ، لِلَّذِينَ جَانَبُوا الْبَاطِلَ وَعَانَدُوهُ وَكَافَحُوهُ وَجَالَدُوهُ، وَلَا يُخَالِطَنَّ خَلَدَ إِنْسَانٍ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنَّ مَرْحَلَةً مِنْ مَرَاحِلِ الصِّرَاعِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ فَاصِلَةً فِي الصِّرَاعِ كُلِّهِ وَفِي نَتِيجَتِهِ!

وَإِنَّمَا النَّتِيجَةُ الْمَحْسُومَةُ سَلَفًا.. النَّتِيجَةُ الَّتِي جَعَلَهَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ حَتْمًا.. هَذِهِ النَّتِيجَةُ هِيَ أَنَّ النَّصْرَ لِلْمُؤْمِنِينَ بِلَا خِلَافٍ وَلَا نِزَاعٍ، وَلَكِنْ يَأْتِي النَّصْرُ لِلْمُؤْمِنِينَ -بِقَدَرِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ- عِنْدَمَا يَتَحَقَّقُ الْمُؤْمِنُونَ بِشَرَائِطِ النَّصْرِ وَبِأَسْبَابِهِ، وَعِنْدَمَا يَأْخُذُ الْمُسْلِمُونَ بِقَوَاعِدِ الْوُصُولِ إِلَىٰ نَصْرِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وَإِلَّا كَانَتْ فِتْنَةً فِي دُنْيَا اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَوْ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ ضَعْفِ قُوَّتِهِمْ، وَقِلَّةِ حِيلَتِهِمْ، وَهَوَانِ شَأْنِهِمْ دَخَلُوا وَهُمْ يَشْتَمِلُونَ فِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ.. يَشْتَمِلُونَ مَعَ الضَّعْفِ وَالْهَوَانِ وَالْقِلَّةِ وَالذِّلَّةِ ظَاهِرًا.. يَشْتَمِلُونَ عَلَىٰ الْمَعْصِيَةِ للهِ

رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْمُبَارَزَةِ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ بِالْعَظَائِمِ، وَالْمُحَارَبَةِ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ فِي شَرْعِهِ وَدِينِهِ، وَمُحَارَبَةِ أَوْلِيَاءِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.. لَوْ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ دَخَلُوا الْمَعْرَكَةَ وَهُمْ عَلَىٰ هَذِهِ الْحَالِ وَنَصَرَهُمُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ لَكَانَتْ فِتْنَةً وَكَانَتْ مِحْنَةً تَنْزِلُ بِالْبَشَرِ، وَإِنَّمَا يُمَحِّصُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ.

لَوْ تَزَيَّلَ[1] هَؤُلَاءِ مِنْ هَؤُلَاءِ، وَانْفَصَلَ هَؤُلَاءِ عَنْ هَؤُلَاءِ لَجَاءَ نَصْرُ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ بِسَبَبٍ وَبِغَيْرِ سَبَبٍ، وَجَاءَ نَصْرُ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ تَمْكِينًا فِي الْأَرْضِ مِنْ أَجْلِ إِقَامَةِ دِينِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ أَمْرًا بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهْيًا عَنِ الْمُنْكَرِ، وَإِقَامَةً لِلصَّلَاةِ، وَإِيتَاءً لِلزَّكَاةِ، وَنَشْرًا لِلْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَالْخَيْرِ فِي دُنْيَا اللهِ.

أَمَّا أَنْ يَشْتَمِلَ الْمُسْلِمُونَ عَلَىٰ كُلِّ مُخْزِيَةٍ ظَاهِرَةٍ وَبَاطِنَةٍ.. أَمَّا أَنْ يُشَاكِلَ الْمُسْلِمُونَ الْمُشْرِكِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي هَيْئَاتِهِمْ وَفِي حَرَكَاتِ حَيَاتِهِمْ، بَلْ فِي اعْتِقَادَاتِهِمْ وَفِي تَصَوُّرَاتِهِمْ، ثُمَّ يَتَدَنَّىٰ الْمُسْلِمُونَ إِلَىٰ الْوَهْدَةِ إِلَىٰ الْحَضِيضِ، وَلَا يَمْتَلِكُونَ أَسْبَابَ النَّصْرِ بِقُوَّةِ الْمَادَّةِ، مَعَ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ هَذَا التَّدَنِّي فِي الْأَخْلَاقِ، وَالْبُعْدِ عَنْ دِينِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، ثُمَّ يَأْتِيهِمُ النَّصْرُ، فَهَذَا مُخَالِفٌ لِسُنَّةِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ فِي كَوْنِهِ.

أَبَىٰ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ إِلَّا أَنْ يَنْصُرَ مَنْ يَنْصُرُهُ، لَا يَنْصُرُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ مَنْ يَخْذُلُهُ، بَلِ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ يُؤْتِي النَّصْرَ الْمُؤْمِنِينَ، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الروم: ٤٧].

---

(١) تَزَيَّلَ: تَفَرَّقَ.

وَالنَّصْرُ -أَيْضًا- إِذَا تَمَكَّنَ النَّاسُ مِنَ الْقُوَّةِ ظَاهِرًا وَحَازُوهَا فِي بَادِئِ الرَّأْيِ فَإِنَّهُمْ لَا يَتَحَصَّلُونَ عَلَىٰ النَّصْرِ فِي دُنْيَا اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ إِلَّا بِقَدَرِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ تَمْحِيصًا مِنَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَاخْتِبَارًا وَابْتِلَاءً وَامْتِحَانًا؛ لِيُمَحِّصَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ الْمُؤْمِنِينَ، وَلِيُذْهِبَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ الزَّيْفَ وَالشَّوَائِبَ عَنْ صُفُوفِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُوَحِّدِينَ الصَّابِرِينَ الْمُجَاهِدِينَ.

وَأَمَّا الْعَقِيدَةُ الْحَقَّةُ فَإِنَّهَا لَا يُمْكِنُ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ أَنْ تَهْتَزَّ فِي نَفْسِ مُؤْمِنٍ لِاخْتِلَافِ أُمُورِ الدُّنْيَا، فَالدُّنْيَا قَدَرٌ مِنْ قَدَرِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ مَأْمُورٌ بِأُمُورٍ شَرْعِيَّةٍ عَلَيْهِ أَنْ يَلْتَزِمَهَا، وَلَا عَلَيْهِ مِنْ نَتَائِجِهَا، تَأْتِي النَّتَائِجُ كَمَا يَشَاءُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَاللهُ جَلَّوَعَلَا لَا يُحَاسِبُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ النَّتَائِجِ فِي دُنْيَا اللهِ، وَإِنَّمَا يُحَاسِبُهُمُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ عَلَىٰ إِتْقَانِ الْعَمَلِ، يُحَاسِبُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ إِحْسَانِ الصُّنْعِ فِيمَا أَمَرَهُمُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بِهِ.(*).

عِبَادَ اللهِ! إِنَّ الصِّرَاعَ الدَّائِمَ بَيْنَ الْأُمَمِ كَالصِّرَاعِ الدَّائِرِ بَيْنَ الْأَشْخَاصِ فِي دُنْيَا اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

إِنَّ الصِّرَاعَ إِمَّا أَنْ يَكُونَ بَيْنَ حَقٍّ وَحَقٍّ، وَهَذَا مُمْتَنِعٌ تَمَامًا؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ بَيْنَ حَقٍّ وَحَقٍّ لَاجْتَمَعَ الْمُتَصَارِعُونَ؛ لِأَنَّ التَّطَابُقَ فِي الْغَايَةِ وَالْوَسِيلَةِ الَّتِي هِيَ الْحَقُّ الَّذِي عَلَيْهِ يَتَصَارَعُونَ كَفِيلٌ بِأَنْ يَجْعَلَ الْأَمْرَ عَلَىٰ وَجْهٍ وَاحِدٍ وَلَا تَزِيدُ.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ» - الْجُمُعَةُ ١٦ صَفَر ١٤٢٤هـ| ١٨-٤-٢٠٠٣م.

إِنَّ الصِّرَاعَ لَا يَكُونُ فِي الْحَيَاةِ بَيْنَ حَقٍّ وَحَقٍّ أَبَدًا، الصِّرَاعُ إِمَّا بَيْنَ بَاطِلٍ وَحَقٍّ، وَإِمَّا بَيْنَ بَاطِلٍ وَبَاطِلٍ، وَالصِّرَاعُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ لَا يَدُومُ، فَإِذَا رَأَيْتَ صِرَاعًا يَمْتَدُّ أَزْمَانًا فَاعْلَمْ أَنَّهُ صِرَاعٌ بَيْنَ بَاطِلٍ وَبَاطِلٍ، وَأَمَّا الصِّرَاعُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ فَيَقُولُ فِيهِ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء: ٨١].

الْبَاطِلُ قَصِيرُ النَّفَسِ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَمَشَّىٰ مَعَ الْحَقِّ فِي صِرَاعٍ يَطُولُ، إِنْ هِيَ إِلَّا جَوْلَةٌ أَوْ جَوْلَتَانِ أَوْ جَوْلَاتٌ لَا تَتَعَدَّىٰ أَصَابِعَ الْيَدِ الْوَاحِدَةِ، ثُمَّ إِذَا هُوَ زَاهِقٌ مَدْحُورٌ، كَمَا أَخْبَرَ رَبُّنَا جَلَّ وَعَلَا فِي مُحْكَمِ التَّنْزِيلِ.

وَأَمَّا الصِّرَاعُ إِذَا مَا طَالَ فَاعْلَمْ يَقِينًا أَنَّ الصِّرَاعَ هَاهُنَا بَيْنَ بَاطِلٍ وَبَاطِلٍ، قَدْ يَكُونُ الْحَقُّ فِي جَانِبِ بَعْضِ الْمُتَصَارِعِينَ، وَلَكِنَّ الْوَسِيلَةَ الَّتِي تُوَصِّلُ إِلَىٰ هَذَا الْحَقِّ وَسِيلَةٌ لَا حَقَّ فِيهَا، بَلْ هِيَ مَبْنِيَّةٌ عَلَىٰ الْبَاطِلِ الَّذِي لَا حَقَّ فِيهِ وَلَا مَعَهُ.(*).

❀❀❀

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ».

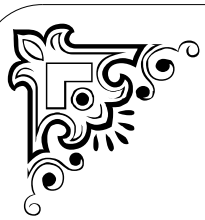

الْمَعَاصِي سَبَبُ هَزِيمَةِ الْأُمَّةِ وَكَسْرَتِهَا

إِنَّ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ فِي هَذَا الْكَوْنِ الْعَرِيضِ سُنَنًا لَا تُحَابِي أَحَدًا وَلَا تُجَامِلُهُ، وَلَوْ كَانَ مُحَمَّدًا ﷺ.

وَمِنْ سُنَنِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الْكَوْنِيَّةِ فِي كَوْنِهِ الْعَرِيضِ مَا أَخْبَرَ عَنْهُ اللهُ جَلَّ وَعَلَا فِي مُحْكَمِ التَّنْزِيلِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣].

فَهَذِهِ سُنَّةٌ كَوْنِيَّةٌ مِنْ سُنَنِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ فِي كَوْنِهِ الْعَرِيضِ، عَامِلَةٌ فِي هَذَا الْكَوْنِ -بِقَدَرِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَحِكْمَتِهِ-، وَهَذِهِ السُّنَّةُ لَا تُجَامِلُ أَحَدًا وَلَا تُحَابِيهِ، حَتَّىٰ إِنَّ وُجُودَ شَخْصِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ أَصْحَابِهِ فِي مَوْقِعَةِ (أُحُدٍ) وَغَزْوَتِهَا.. وُجُودَ شَخْصِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَمْ يَمْنَعْ هَذِهِ السُّنَّةَ مِنَ النَّفَاذِ؛ لِأَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَمَرَهُمْ نَبِيُّهُمْ ﷺ بِأَنْ يَلْزَمُوا مَوَاقِعَهُمْ عَلَىٰ قِمَّةِ جَبَلِ الرُّمَاةِ، وَأَلَّا يُغَادِرُوا مَوَاقِعَهُمْ وَلَوْ رَأَوُا الْمُشْرِكِينَ يَرْكَبُونَ أَكْتَافَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

فَخَالَفُوا أَمْرَ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمْ يَمْنَعْ وُجُودُ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَيْنَهُمْ مِنْ أَنْ يُحَوِّلَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ نَصْرَهُمْ هَزِيمَةً، وَأَنْ يَجْعَلَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ الدَّائِرَةَ عَلَيْهِمْ وَلَوْ فِي ظَاهِرِ الْأَمْرِ، كُلُّ ذَلِكَ بِشُؤْمِ مُخَالَفَةِ النَّبِيِّ ﷺ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

وَمِنْ أَجْلِ هَذَا الْقَانُونِ وَهَذِهِ السُّنَّةِ قَالَ وَكِيلُ الْأَزْهَرِ فِي عَامِ أَلْفٍ وَثَلَاثِ مِائَةٍ وَثَمَانِينَ وَثَمَانٍ مِنْ هِجْرَةِ الْعَدْنَانِ ﷺ (١٣٨٨هـ): «إِنَّنَا لَوِ انْتَصَرْنَا فِي سَنَةِ سَبْعٍ وَسِتِّينَ (١٩٦٧م) عَلَىٰ مَا كَانَ بِنَا مِنَ انْحِرَافٍ وَشَطَطٍ، وَخُرُوجٍ عَنْ دِينِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ مَا زَادَنَا ذَلِكَ إِلَّا عُتُوًّا فِي الْأَرْضِ وَاسْتِكْبَارًا».

فِي «الزُّهْدِ لِأَحْمَدَ» عَنْ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ رضي الله عنه قَالَ: «لَمَّا فُتِحَتْ قُبْرُصُ؛ فُرِّقَ بَيْنَ أَهْلِهَا، فَبَكَىٰ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ، فَرَأَيْتُ أَبَا الدَّرْدَاءِ جَالِسًا وَحْدَهُ يَبْكِي، فَقُلْتُ: يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ! مَا يُبْكِيكَ فِي يَوْمٍ أَعَزَّ اللهُ فِيهِ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ؟».

فَقَالَ: «وَيْحَكَ! مَا أَهْوَنَ الْخَلْقَ عَلَىٰ اللهِ إِذَا أَضَاعُوا أَمْرَهُ، بَيْنَمَا هِيَ أُمَّةٌ قَاهِرَةٌ ظَاهِرَةٌ لَهُمُ الْمُلْكُ، تَرَكُوا أَمْرَ اللهِ، فَصَارُوا إِلَىٰ مَا تَرَىٰ!»[1].

لَمَّا فَتَحَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ قُبْرُصَ، وَنَصَرَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ الْمُسْلِمِينَ نَصْرًا عَزِيزًا، وَأَعَزَّ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ عِزَّةً ظَاهِرَةً عَالِيَةً غَالِبَةً، جَلَسَ أَبُو الدَّرْدَاءِ نَاحِيَةً يَبْكِي وَيَنْتَحِبُ.

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور في السنن: (٢٦٦٠)، وأحمد في الزهد: (٧٦٣)، وأبو نعيم في الحلية: (١/ ٢١٦)، بإسناد صحيح.

قَالَ جُبَيْرٌ: فَذَهَبْتُ إِلَيْهِ فَقُلْتُ: فِي مِثْلِ هَذَا الْيَوْمِ الَّذِي أَعَزَّ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ فِيهِ الْإِسْلَامَ وَنَصَرَ الْمُسْلِمِينَ تَجْلِسُ نَاحِيَةً تَبْكِي؟!

فَقَالَ: وَيْحَكَ يَا جُبَيْرُ! بَيْنَمَا هِيَ أُمَّةٌ ظَاهِرَةٌ عَالِيَةٌ لَهَا الْأَمْرُ؛ إِذْ خَالَفُوا أَمْرَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَصَيَّرَهُمُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ إِلَىٰ مَا تَرَىٰ!

وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ لَمَّا فَتَحَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ عَلَيْهِمْ قُبْرُصَ فَرَّقُوا بَيْنَ أَهْلِهَا، فَبَكَىٰ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ بُكَاءً يُفَتِّتُ الْأَكْبَادَ وَيُذِيبُ الْقُلُوبَ، وَهُوَ الَّذِي دَعَا فِي بَادِئِ الْأَمْرِ أَبَا الدَّرْدَاءِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَبْكِيَ مُنْتَحِيًا نَاحِيَةً يَرَىٰ سُنَّةَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الْكَوْنِيَّةَ عَامِلَةً فِي خَلْقِهِ، وَهُوَ يَخْشَىٰ أَنْ تَدُورَ الدَّائِرَةُ عَلَىٰ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَيْحَكَ يَا جُبَيْرُ! بَيْنَمَا هِيَ أُمَّةٌ ظَاهِرَةٌ غَالِبَةٌ لَهَا الْأَمْرُ؛ إِذْ خَالَفُوا أَمْرَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَصَيَّرَهُمُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ إِلَىٰ مَا تَرَىٰ!

وَالرَّسُولُ ﷺ يُحَذِّرُنَا مِنْ عَمَلِ هَذِهِ السُّنَّةِ الْكَوْنِيَّةِ فِي أَوْصَالِ أُمَّتِنَا، فَيُصِيبُنَا ذُلٌّ مِنْ بَعْدِ عِزٍّ، وَضَعَةٌ مِنْ بَعْدِ رِفْعَةٍ، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢١﴾ [يوسف: ٢١].

إذا تبايعتُم بالعينةِ وأخذتم أذنابَ البقرِ ، ورضيتُم بالزَّرعِ وتركتمُ الجِهادَ سلَّطَ اللهُ عليكم ذلًّا لَا ينزعُهُ حتَّىٰ ترجعوا إلىٰ دينِكُم

يَقُولُ النَّبِيُّ الْمَأْمُونُ ﷺ: «**إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ؛ سَلَّطَ اللهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّىٰ تَرْجِعُوا إِلَىٰ دِينِكُمْ**»(١).

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٤٦٢)، والبزار (٥٨٨٧)، والطبراني في «مسند الشاميين» (٢٤١٧)، =

يَقُولُ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

«**إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ**»: وَهِيَ صُورَةٌ مِنْ صُوَرِ التَّعَامُلِ الرِّبَوِيِّ؛ أَنْ يَذْهَبَ الرَّجُلُ إِلَىٰ رَجُلٍ فَيَشْتَرِي مِنْهُ سِلْعَةً إِلَىٰ أَجَلٍ، ثُمَّ يَبِيعُهَا لَهُ نَقْدًا فِي الْحَالِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَرُدَّ وَأَنْ يَدْفَعَ لَهُ شَيْئًا مِمَّا أُجِّلَ عَلَيْهِ مِنْ ثَمَنِهَا، يَبِيعُهَا لَهُ نَقْدًا بِثَمَنٍ أَقَلَّ مِنَ الثَّمَنِ الَّذِي اشْتَرَاهَا بِهِ مِنْهُ نَسِيئَةً، فَيَأْخُذُ النَّقْدَ أَقَلَّ مِمَّا هُوَ عَلَيْهِ دَيْنًا إِلَىٰ أَجَلٍ، ثُمَّ يَنْصَرِفُ وَقَدْ رَدَّ السِّلْعَةَ، وَهُوَ تَعَامُلٌ هَكَذَا عَلَىٰ هَذِهِ الصُّورَةِ دَخَلَتِ السِّلْعَةُ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ وَهُوَ رِبًا فِيهِ مِنَ الْحِيلَةِ مَا فِيهِ، يَضْرِبُهُ النَّبِيُّ ﷺ مَثَلًا.. مَثَلًا مَضْرُوبًا لِتَعَامُلٍ اقْتِصَادِيٍّ تُجْمِعُ عَلَيْهِ الْأُمَّةُ أَوْ تَكَادُ، حَتَّىٰ إِنَّهَا إِذَا لَمْ يُصِبْهَا شَيْءٌ مِنَ الرِّبَا أَصَابَهَا كَثِيرٌ مِنْ دُخَانِهِ وَغُبَارِهِ -وَالْأَمْرُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ-.

«**إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ**»: وَقَدْ دَعَا دَاعِي الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ: أَنْ يَا خَيْلَ اللهِ! ارْكَبِي، فَرَضِيتُمْ بِالدَّنِيئَةِ وَالْحِطَّةِ وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ بَعْدَ أَنْ كُنْتُمْ تَمْتَطُونَ صَهْوَاتِ الْجِيَادِ، تُثِيرُونَ الْغُبَارَ الَّذِي لَا يُشَقُّ جِهَادًا فِي سَبِيلِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

«**وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ**»: وَأَخْلَدْتُمْ إِلَىٰ الْأَرْضِ، وَأَخَذْتُمْ بِالدَّعَةِ وَالْخَفْضِ، وَلَمْ تَخْشَوْشِنُوا كَمَا أَمَرَ الْفَارُوقُ رضي الله عنه؛ لِأَنَّ النِّعْمَةَ لَا تَدُومُ.

يَقُولُ النَّبِيُّ الْمَأْمُونُ ﷺ: «**وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ؛ سَلَّطَ اللهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا، لَا يَنْزِعُهُ حَتَّىٰ تَرْجِعُوا إِلَىٰ دِينِكُمْ**».

=

وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٣٤٦٢) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

وَوَاللهِ! إِنَّ الذُّلَّ لَمُحِيطٌ بِمَنْ بَدَّلَ دِينَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَغَيَّرَ سُنَّةَ النَّبِيِّ الْأَمِينِ ﷺ.

وَهَلْ ذُلٌّ فَوْقَ أَنْ يُسَلِّطَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ شُذَّاذَ الطُّرُقِ وَقُطَّاعَهَا مِنْ إِخْوَانِ الْقِرَدَةِ وَالْخَنَازِيرِ عَلَىٰ خَيْرِ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، وَقَدْ أَرْبَىٰ عَدَدُهَا عَلَىٰ الْمِلْيَارِ، وَهَؤُلَاءِ الشُّذَّاذُ وَاللُّصُوصُ لَا يَبْلُغُونَ بِجِوَارِهَا شَيْئًا؛ لَا عَدَدًا وَلَا عَتَادًا، وَلَا قُوَّةً وَلَا نَفَاذًا، وَلَا مَنْهَجًا وَلَا مِنْهَاجًا، وَلَكِنَّمَا هُوَ قَدَرُ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ كَمَا أَخْبَرَ النَّبِيُّ الْأَمِينُ ﷺ: «**يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَىٰ عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَىٰ الْأَكَلَةُ إِلَىٰ قَصْعَتِهَا**».

فَقَالَ قَائِلٌ: «وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟».

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ مُعَلِّلًا وَمُفَسِّرًا: إِنَّ تَدَاعِيَ الْأُمَمِ كَمَا تَتَدَاعَىٰ الْأَكَلَةُ إِلَىٰ قَصْعَتِهَا.. تَدَاعِي الْأُمَمِ عَلَيْكُمْ لَيْسَ مِنْ قِلَّةٍ فِيكُمْ، قَالَ: «**بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزِعَنَّ اللهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهَنَ**».

فَقَالَ قَائِلٌ: «يَا رَسُولَ اللهِ! وَمَا الْوَهَنُ؟».

قَالَ: «**حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ**»(١).

وَمَا كَذَلِكَ يَكُونُ جُنْدُ مُحَمَّدٍ ﷺ.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٩٧)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٤٢٩٧) من حديث ثوبان مولىٰ رسول الله ﷺ.

مِنْ أَجْلِهَا سَلَّطَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ عَلَىٰ الْأُمَّةِ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّىٰ تَرْجِعَ إِلَىٰ دِينِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢١﴾.

إِنَّ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ قَدْ جَعَلَ سُنَّةً كَوْنِيَّةً مِنْ سُنَنِهِ الْكَوْنِيَّاتِ الْعَامِلَاتِ بِقَدَرِهِ وَحِكْمَتِهِ فِي كَوْنِهِ الْعَرِيضِ عَامِلَةً فِي أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ لِأَنَّ سُنَنَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا تُحَابِي أَحَدًا وَلَا تُجَامِلُهُ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾.

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٤١﴾ [الروم: ٤١].

﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾: وَلَيْسَ الْبَحْرُ هَاهُنَا مَا يَنْصَرِفُ إِلَيْهِ الذِّهْنُ بَدْءًا، وَإِنَّمَا هُوَ الْحَوَاضِرُ وَالْقُرَىٰ، وَكُلُّ مَا كَانَ عَلَىٰ مَاءٍ، وَالْبَرُّ هَاهُنَا: الْبَرَارِي كَمَا قَالَ عُلَمَاؤُنَا -رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِمْ- فِي أَظْهَرِ وُجُوهِ التَّأْوِيلِ لِهَذَا الْقَوْلِ الشَّرِيفِ.

﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾: عِنْدَمَا يَأْتِي مِنَ النَّاسِ الْمَعَاصِي، وَعِنْدَمَا يَتَأَتَّىٰ مِنَ النَّاسِ الْمُخَالَفَاتُ؛ فَلَا تَنْتَظِرْ مِنَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لِلْمُخَالِفِينَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا، وَلَا عِزَّةً غَالِبَةً، وَلَا رِفْعَةً دَائِمَةً، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ فِي بَادِئِ الْأَمْرِ فَإِنَّمَا هُوَ الِاسْتِدْرَاجُ كَمَا قَالَ عُلَمَاؤُنَا -عَلَيْهِمُ الرَّحْمَةُ-: إِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْصِي اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ، وَيَفْجُرُ عَنْ أَمْرِ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ ﷺ وَمَعَ ذَلِكَ فَهُوَ فِي نِعْمَةٍ ظَاهِرَةٍ وَفِي عَطَاءٍ مُتَوَاتِرٍ فَاعْلَمْ أَنَّهُ اسْتِدْرَاجٌ مِنَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨٢ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ١٨٣﴾ [الأعراف: ١٨٢-١٨٣].

يَقُولُ الرَّسُولُ الْأَمِينُ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ**»، وَكَمْ مِنْ أُمَّةٍ ظَاهِرَةٍ غَالِبَةٍ يَنْخَرُ السُّوسُ فِي أَوْصَالِهَا بِمَعَاصِي اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَبِالْبُعْدِ عَنْ دِينِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

*** مِصْرُ بَيْنَ الْهَزِيمَةِ وَالنَّصْرِ.. دُرُوسٌ وَعِبَرٌ:**

وَانْظُرْ إِلَىٰ حَالِ الْأُمَّةِ قَبْلَ السَّابِعِ وَالسِّتِّينَ، إِنَّ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ -وَجُزْءٌ مِنْهَا الْأُمَّةُ الْمِصْرِيَّةُ قَبْلَ السَّابِعِ وَالسِّتِّينَ- كَانَتْ فِي غَفْلَةٍ مُطْبِقَةٍ عَنْ دِينِ نَبِيِّهَا ﷺ، وَصَارَ بَأْسُهَا بَيْنَهَا؛ لِأَنَّ الْأُمَّةَ إِذَا بَعُدَتْ عَنِ الْإِسْلَامِ صَارَتْ أُمَمًا وَقَوْمِيَّاتٍ وَأَعْرَاقًا وَنَزْعَاتٍ وَتَصَوُّرَاتٍ، وَلَا يَلُمُّ الْأُمَّةَ وَلَا يَجْمَعُ شَمْلَهَا إِلَّا دِينُ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَلَىٰ مُقْتَضَىٰ هَدْيِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

إِنَّ الْأُمَّةَ فَقَدَتْ مَا يَرْبُو عَلَىٰ سِتِّ مِائَةِ مِلْيُون مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَمَّا دَعَتْ إِلَىٰ الْعِرْقِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ، ثُمَّ إِنَّهَا تَنَازَعَتْ بَيْنَهَا إِلَىٰ الْيَمِينِ حِينًا وَإِلَىٰ الْيَسَارِ حِينًا، وَإِلَىٰ يَمِينِ الْيَمِينِ وَيَسَارِ الْيَسَارِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْيَمِينَ لَيْسَ لَوْنًا وَاحِدًا، بَلْ هُوَ أَلْوَانٌ تَخْتَلِفُ مِنْ وَاشُنْطُنَ إِلَىٰ بَارِيسَ إِلَىٰ لُنْدُنَ إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ عَوَاصِمِ الْغَرْبِ عَلَىٰ انْتِمَاءَاتِهَا إِلَىٰ الْيَمِينِ، وَأَيْضًا الْيَسَارُ يَخْتَلِفُ بِأَلْوَانِهِ مِنَ الْأَحْمَرِ إِلَىٰ الْأَصْفَرِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ مُوسْكُو إِلَىٰ بِكِين.

وَالْأُمَّةُ عِنْدَمَا تُهْمِلُ دِينَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ إِهْمَالًا غَيْرَ حَمِيدٍ، وَتَجْعَلُ الدِّينَ دَبْرَ الْآذَانِ؛ يُصِيبُهَا مَا أَصَابَ الْأُمَمَ قَبْلَهَا -بِقَدَرِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ-، بَلْ إِنَّهَا تَنَازَعَتْ بَيْنَهَا -وَإِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ.

فَفِي السَّابِعِ وَالسِّتِّينَ جَاءَتْ نَكْبَةٌ مَرِيرَةٌ بِكُلِّ مَا يُمْكِنُ أَنْ تَحْمِلَهُ اللَّفْظَةُ مِنَ

الْمَعَانِي، وَمَا يُمْكِنُ أَنْ تَتَفَجَّرَ بِهِ مِنْ بَيْنِ الثَّنَايَا وَالْحَنَايَا بِالْقَيْحِ وَبِالصَّدِيدِ، إِنَّهُ فِي ثَلَاثِ سَاعَاتٍ دُمِّرَتْ جَمِيعُ قُوَّةِ الْمِصْرِيِّينَ مِنَ الطَّيَرَانِ الرَّاكِدِ عَلَىٰ أَرْضِهِ فِي ثَلَاثِ سَاعَاتٍ لَا تَزِيدُ، وَكُنَّا نَتَوَقَّعُ يَوْمَهَا أَنْ يَأْتِيَ إِلَيْنَا الْهُجُومُ مِنْ قِبَلِ يَهُودٍ مِنَ الشَّمَالِ أَوْ مِنَ الشَّرْقِ، فَجَاءَنَا مِنَ الْغَرْبِ، وَالْأَصْلُ أَنْ نَتَوَقَّعَ الْهُجُومَ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ وَلَوْ كَانَ مِنْ تَحْتِ مَوَاطِئِ الْأَقْدَامِ، وَلَكِنَّمَا هُوَ فَقْدُ الْبَصَرِ مِنْ بَعْدِ فَقْدِ الْبَصِيرَةِ لِغَلَبَةِ الْمَعَاصِي عَلَىٰ الْقَوْمِ -وَإِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ-.

كَانَ الْمُذِيعُونَ فِي وَقْتِهَا يُحَرِّضُونَ الْجُنُودَ فِي الْمَيَادِينِ بِهَذَا التَّحْرِيضِ الْعَجِيبِ: لَا دِينَ إِلَّا الْقُوَّةُ، وَلَا عَقِيدَةَ إِلَّا السِّلَاحُ، يَقُولُونَ: تَقَدَّمُوا -أَيُّهَا الْجُنُودُ- فَإِنَّ الْفَنَّانَةَ فُلَانَةً وَرَاءَكُمْ، وَإِنَّ الْمُطْرِبَةَ عِلَّانَةً بِجَانِبِكُمْ؛ فَتَقَدَّمُوا وَاخْتَرِقُوا الصُّفُوفَ، وَمَا هَكَذَا يَكُونُ الْأَمْرُ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ الْعَرَبِيُّ الْقَدِيمُ:

أَوْرَدَهَا سَعْدٌ وَسَعْدٌ مُشْتَمِل مَا هَكَذَا تُورَدُ يَا سَعْدُ الْإِبِل

إِنَّ الْأَمْرَ يَنْبَغِي أَنْ يَعُودَ إِلَىٰ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، نَكْبَةٌ وَلَا مِنْ مُجِيرٍ مِنْهَا وَلَا عَاصِمٍ؛ لِأَنَّ الْمُجِيرَ وَالْعَاصِمَ جَعَلَهُ الْقَوْمُ دَبْرَ الْآذَانِ، وَإِنَّمَا هُوَ دِينُ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

دُمِّرَتْ قُوَّةُ الطَّيَرَانِ الضَّارِبَةُ بِجَمِيعِهَا، وَتَحَطَّمَتْ مَا يَقْرُبُ مِنْ ثَمَانِينَ بِالْمِائَةِ (٨٠٪) مِنْ قُوَّةِ الْمِصْرِيِّينَ الْعَسْكَرِيَّةِ، وَهِيَ أَكْبَرُ قُوَّةٍ ضَارِبَةٍ عَرَبِيَّةٍ قَطُّ -بِفَضْلِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ-.

وَغَنِمَ الْيَهُودُ الْمَلَاعِينُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ مِنَ الْعَتَادِ وَمِنَ الذَّخِيرَةِ وَمِنَ الْأَرْضِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْلُمُونَ بِهِ مُنْذُ أَنْ جَاءَ إِسْرَائِيلُ إِلَىٰ كَوْنِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

إِنَّهُمْ قَدِ اسْتَحْوَذُوا عَلَىٰ سَيْنَاءَ وَغَزَّةَ وَمُرْتَفَعَاتِ الْجُولَانِ وَالضِّفَّةِ وَالْقُدْسِ، وَدَخَلُوا إِلَىٰ مَسْجِدِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الْمُطَهَّرِ، وَوَقَفُوا يَنْتَحِبُونَ هُنَاكَ عِنْدَ حَائِطِ الْمَبْكَىٰ كَفِعْلِ الْبَهَالِيلِ!

إِنَّ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ قَدَّرَ مَا قَدَّرَ مِنْ هَذَا التَّقْدِيرِ؛ لِكَيْ يَعُودَ النَّاسُ إِلَىٰ دِينِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَبِالْفِعْلِ عَادُوا صَاغِرِينَ رَاغِمِينَ إِلَىٰ دِينِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَلَمَّا مَنَّ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بِالْعَوْدَةِ الْحَمِيدَةِ إِلَىٰ دِينِهِ الْمَجِيدِ، لَا مُوسْكُو وَلَا وَاشُنْطُن وَلَا مَا بَيْنَهُمَا، وَإِنَّمَا هُوَ اللهُ الْعَزِيزُ الْقَدِيرُ، ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ١٠﴾ [الأنفال: ١٠].

لَمَّا عَادَ الْقَوْمُ إِلَىٰ دِينِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَصَارَ الشِّعَارُ: اللهُ أَكْبَرُ؛ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ وَقُوَّتُهُ الْعَزِيزَةُ الْغَالِبَةُ، وَهُوَ -سُبْحَانَهُ- الْغَالِبُ عَلَىٰ أَمْرِهِ، وَلَيُغْلَبَنَّ مُغَالِبُ الْغَلَّابِ، لَمَّا عَادَ الْأَمْرُ إِلَىٰ سَوَائِهِ، وَاسْتَقَرَّ عَلَىٰ قَرَارِهِ جَاءَ النَّصْرُ مِنْ عِنْدِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَفُوجِئَ الْيَهُودُ مِنْ إِخْوَانِ الْقِرَدَةِ وَالْخَنَازِيرِ فِي الْعَاشِرِ مِنْ رَمَضَانَ فِي السَّادِسِ مِنْ أُكْتُوبَر فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأَيَّامِ الَّذِي تُحْيَا فِيهِ الذِّكْرَىٰ، لَا ذِكْرَىٰ النَّصْرِ، وَإِنَّمَا ذِكْرَىٰ أَسْبَابِ النَّصْرِ، الذِّكْرَىٰ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ أَنَّ النَّصْرَ لَا يَتَأَتَّىٰ مِنْ عِنْدِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ إِلَّا لِمَنْ إِذَا مَكَّنَهُمُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ، وَآتَوُا الزَّكَاةَ، وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، وَللهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ.(*).

❀❀❀

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ».

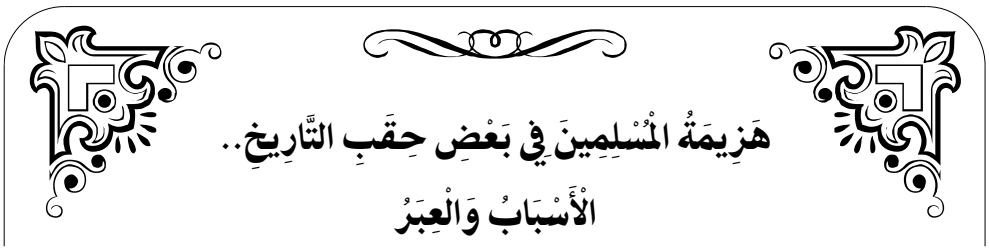

هَزِيمَةُ الْمُسْلِمِينَ فِي بَعْضِ حِقَبِ التَّارِيخِ..
الْأَسْبَابُ وَالْعِبَرُ

فِي مَرْحَلَةٍ مِنْ مَرَاحِلِ الصِّرَاعِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ فِي تَارِيخِ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ تَكَالَبَ الْكُفَّارُ الْمُجْرِمُونَ الْمُشْرِكُونَ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ وَعَلَىٰ دِيَارِ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمَةِ الشَّامِخَةِ بِكَلِمَةِ التَّوْحِيدِ.. تَكَالَبَ هَؤُلَاءِ الْمُجْرِمُونَ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ شَرْقًا وَغَرْبًا، فَجَاءَ الصَّلِيبِيُّونَ وَظَلُّوا يُجَالِدُونَ وَيُكَافِحُونَ فِي مَرْحَلَةٍ مِنْ مَرَاحِلِ الضَّعْفِ.. فِي مَرْحَلَةٍ مِنْ مَرَاحِلِ تَخَلِّي الْمُسْلِمِينَ عَنْ دِينِهِمْ، وَعَدَمِ أَخْذِهِمْ بِأَسْبَابِ رَبِّهِمْ فِي دُنْيَا رَبِّهِمْ جَلَّ وَعَلَا.

فَجَاءَتِ الْكَسْرَةُ، وَظَلُّوا مُحْتَلِّينَ لِأَرْضِ الْإِسْلَامِ قَرْنَيْنِ كَامِلَيْنِ.. مِائَتَيْ عَامٍ كَامِلَاتٍ وَهُمْ مُحْتَلُّونَ لِأَرْضِ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ، وَاحْتَلُّوا (بَيْتَ الْمَقْدِسِ)، فَدَخَلَتِ الْخَيْلُ تَخُوضُ فِي الدِّمَاءِ إِلَىٰ الرُّكَبِ، وَقَتَلُوا عَشَرَاتِ الْأُلُوفِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَسَالَتِ الدِّمَاءُ فَوْقَ الْأَسْطُحِ وَفِي الطُّرُقَاتِ حَتَّىٰ كَانَتِ الدِّمَاءُ تَنْزِلُ مِنَ الْمَيَازِيبِ -تِلْكَ الَّتِي كَانَتْ تُجْعَلُ وَمَا زَالَتْ فَوْقَ الْأَسْقُفِ؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَتَجَمَّعَ مَاءُ الْمَطَرِ فَوْقَهَا، ثُمَّ يَنْزِلُ مَاءُ الْمَطَرِ بَعْدَ ذَلِكَ

فِي الشَّوَارِعِ بَعِيدًا عَنِ الدُّورِ-، فَكَانَتِ الدِّمَاءُ تَسِيلُ مِنَ الْمَيَازِيبِ، وَدَخَلَتِ الْخَيْلُ تَخُوضُ إِلَىٰ الرُّكَبِ فِي دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ، وَظَلُّوا مُحْتَلِّينَ لِبَيْتِ الْمَقْدِسِ تِسْعِينَ عَامًا، حَتَّىٰ بَعَثَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ فِي الْمُسْلِمِينَ صَحْوَةً، وَحَتَّىٰ نَبَّهَ اللهُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ رِقْدَتِهِمْ، وَأَفَاقَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ غَفْوَتِهِمْ، وَصَحَىٰ الْمُسْلِمُونَ فَتَمَسَّكُوا بِدِينِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأَخْرَجَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ مِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ أَخْرَجَ؛ عِمَادُ الدِّين زَنْكِي، ثُمَّ نُورُ الدِّين مَحْمُود، ثُمَّ تِلْمِيذَهُ أَخْرَجَهُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ صَلَاحَ الدِّين.

وَلَمْ يَكُنِ الشَّأْنُ قَائِمًا حَوْلَ هَذَا الْمِحْوَرِ وَحْدَهُ، فَاللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ لَمْ يَنْصُرِ الْمُسْلِمِينَ -حِينَئِذٍ- بِرَجُلٍ وَاحِدٍ، وَإِنَّمَا هِيَ أُمَّةٌ بُعِثَتْ فِيهَا رُوحُ الْجِهَادِ مِنْ جَدِيدٍ، أَيْقَظَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الرِّقْدَةِ، وَنَبَّهَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْغَفْوَةِ، ثُمَّ كَانَتِ الْمَقَادَةُ بِيَدِ الرَّجُلِ الَّذِي جَاءَ إِلَىٰ الْأُمَّةِ عَلَىٰ قَدَرٍ، فَسَاقَ الْأُمَّةَ أَوْ قَادَهَا -مَا شِئْتَ فَقُلْ- حَتَّىٰ كَانَتِ الْكَسْرَةُ لِلْمُجْرِمِينَ، ثُمَّ الْجَلَاءُ مَخْزِيِّينَ مَطْرُودِينَ مِنْ أَرْضِ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ.

وَمَا هِيَ إِلَّا حِقْبَةٌ يَسِيرَةٌ مِنَ الزَّمَانِ حَتَّىٰ غَارَ الْمَشْرِقُ مِنَ الْمَغْرِبِ؛ فَأَرْسَلَ الْمَشْرِقُ جُمُوعَ التَّتَارِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَدْخُلُوا بَغْدَادَ الْحَبِيبَةَ.

وَالْمُلَاحَظُ فِي جَمِيعِ هَذِهِ الْكَسْرَاتِ الَّتِي تُحِيطُ بِأُمَّةِ الْإِسْلَامِ أَنَّهَا لَا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ إِلَّا عَلَىٰ جِسْرٍ مِنَ الْخِيَانَةِ، لَا يُمْكِنُ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ أَنْ يَتَمَكَّنَ هَؤُلَاءِ الْمُجْرِمُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا أَنْ يَضَعُوا يَدَهُمْ عَلَىٰ شِبْرٍ بَلْ عَلَىٰ قِيدِ

أُنْمُلَةٍ مِنْ أَرْضِ الْإِسْلَامِ الْحَبِيبَةِ إِلَّا عَلَىٰ جِسْرٍ مِنَ الْخِيَانَةِ.. إِلَّا عَلَىٰ جِسْرٍ مِنَ الْغَدْرِ وَالنَّذَالَةِ، وَكَذَلِكَ كَانَ الْأَمْرُ؛ وُزَرَاءُ الْمُسْتَعْصِمِ كَانُوا يُعَامِلُونَ التَّتَارَ بِلَيْلٍ، وَيُرَاسِلُونَهُمْ سِرًّا، وَيَخُونُونَ الْأُمَّةَ فِي حَبَّةِ قَلْبِهَا، وَفِي سُوَيْدَاءِ فُؤَادِهَا، حَتَّىٰ كَانَ مَا كَانَ، وَاسْتُبِيحَتْ بَغْدَادُ الْحَبِيبَةُ.

وَهَذَا -كَمَا تَرَىٰ- يَظَلُّ مَا شَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ حَتَّىٰ يُفِيقَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ غَفْوَتِهِمْ، وَحَتَّىٰ يَنْتَبِهُوا مِنْ رِقْدَتِهِمْ، وَالْقَدَرُ الْكَائِنُ شَرْعًا هُوَ الْقَدَرُ الْكَائِنُ كَوْنًا فِي دُنْيَا اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.(*).

❀❀❀

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ» - الْجُمُعَةُ ١٦ صَفَر ١٤٢٤هـ| ١٨-٤-٢٠٠٣م.

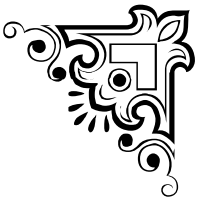

أَسْبَابُ النَّصْرِ وَشُرُوطُهُ

عِبَادَ اللهِ! إِنَّ نَصْرَ اللهِ مَنُوطٌ بِنُصْرَتِهِ لِلدِّينِ وَالْحَقِّ، وَذَلِكَ مِنْ سُنَّةِ الْجَزَاءِ بِجِنْسِ الْعَمَلِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾ [المجادلة: ٢١].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الروم: ٤٧].

وَهَذَا النَّصْرُ الْإِلَهِيُّ مَشْرُوطٌ بِالْإِيمَانِ وَنُصْرَةِ دِينِ اللهِ، وَفِي ذَلِكَ قَالَ رَبُّنَا جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ [محمد: ٧].

«هَذَا أَمْرٌ مِنْهُ -تَعَالَىٰ- لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَنْصُرُوا اللهَ؛ بِالْقِيَامِ بِدِينِهِ، وَالدَّعْوَةِ إِلَيْهِ، وَجِهَادِ أَعْدَائِهِ، وَالْقَصْدُ بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ، فَإِنَّهُمْ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ نَصَرَهُمُ اللهُ وَثَبَّتَ أَقْدَامَهُمْ، أَيْ: يَرْبِطُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ بِالصَّبْرِ وَالطُّمَأْنِينَةِ وَالثَّبَاتِ، وَيُصَبِّرُ أَجْسَامَهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَيُعِينُهُمْ عَلَىٰ أَعْدَائِهِمْ، فَهَذَا وَعْدٌ مِنْ كَرِيمٍ صَادِقِ الْوَعْدِ أَنَّ الَّذِي يَنْصُرُهُ بِالْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ سَيَنْصُرُهُ مَوْلَاهُ،

وَيُيَسِّرُ لَهُ أَسْبَابَ النَّصْرِ مِنَ الثَّبَاتِ وَغَيْرِهِ»(١).

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٤٠].(*).

قَالَ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الأنفال: ١٠].

إِنَّ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ يَمْلِكُ النَّصْرَ، وَلَا يَأْتِي النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَلَكِنَّ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ جَعَلَ النَّصْرَ الَّذِي لَا يَأْتِي إِلَّا مِنْ عِنْدِهِ وَحْدَهُ -سُبْحَانَهُ-.. جَعَلَهُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ مَشْرُوطًا بِشُرُوطٍ.

إِنَّ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج: ٤٠-٤١].

إِنَّ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ يُقَرِّرُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْعَظِيمَةِ أَنَّهُ يَنْصُرُ الَّذِينَ إِذَا مَا مَكَّنَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ، وَآتَوُا الزَّكَاةَ، وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ.

وَلَمْ يَقُلِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ: الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا مَسَارِحَ الْفِسْقِ، وَمَوَاخِيرَ الْمُجُونِ، وَشَوَاطِئَ الْعُرْيِ، وَجَعَلُوا الْأَمْرَ شُيُوعِيَّةً فِي الْجِنْسِ

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٩٢٦).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ: «عَقِيدَتُنَا الْإِسْلَامِيَّةُ: مَقَاطِع مُوجَزَةٌ» (نَصْرُ اللهِ مَنُوطٌ بِنُصْرَتِهِ لِلدِّينِ وَالْحَقِّ، وَذَلِكَ مِنْ سُنَّةِ الْجَزَاءِ بِجِنْسِ الْعَمَلِ» - الثُّلَاثَاءُ ٢٠ مِنْ شَوَّالٍ ١٤٤٢هـ| ١-٦-٢٠٢١م.

وَفِي النِّسَاءِ -وَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ-.

عِبَادَ اللهِ! إِنَّ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ يُحِبُّ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ يُطِيعُوهُ، وَيَأْبَىٰ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ إِلَّا أَنْ يَخْذُلَ مَنْ خَذَلَ دِينَهُ، وَاللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ يَنْصُرُ مَنْ نَصَرَهُ، اللهُ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ، وَلَكِنَّ نَصْرَكَ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ كَمَا أَخْبَرَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ فِي مُحْكَمِ التَّنْزِيلِ: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾، اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ الْغَالِبُ لَا يَحْتَاجُ نَصْرًا مِنْ أَحَدٍ وَلَا مَعُونَةً، وَلَكِنَّ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ هُوَ الَّذِي يُعِينُ وَيَنْصُرُ، بِيَدِهِ مَقَالِيدُ الْقُوَىٰ وَالْقُدَرِ، وَلَكِنَّ نَصْرَ النَّاسِ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ هُوَ نَصْرُهُمْ لِدِينِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ بِإِقَامَةِ دِينِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ فِي الْأَرْضِ.(*).

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا﴾ [النور: ٥٥].

وَانْظُرْ إِلَىٰ الشُّرُوطِ بَدْءًا وَمُنْتَهًى، انْظُرْ إِلَىٰ الشُّرُوطِ صَدْرًا وَعَجُزًا، يَقُولُ رَبُّنَا جَلَّوَعَلَا فِي هَذَا الْوَعْدِ الْإِلَهِيِّ الرَّبَّانِيِّ الْجَلِيلِ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: مُؤْمِنُونَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ.

ثُمَّ انْظُرْ إِلَىٰ الْمُنْتَهَىٰ وَانْظُرْ إِلَىٰ الْعَجُزِ وَانْظُرْ إِلَىٰ التَّذْيِيلِ، يَقُولُ رَبُّنَا جَلَّوَعَلَا: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا﴾: عِبَادَةً صَحِيحَةً للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ظَاهِرًا عَلَىٰ مُقْتَضَىٰ إِيمَانٍ لَا شِرْكَ مَعَهُ، وَإِنَّمَا هُوَ يَقِينٌ صَادِقٌ بِاللهِ وَعَلَىٰ اللهِ وَفِي اللهِ.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ».

هَذِهِ الشُّرُوطُ مَتَىٰ مَا اسْتَكْمَلَتْهَا الْأُمَّةُ، مَتَىٰ مَا اسْتَكْمَلَتْهَا طَائِفَةٌ مِنَ الْأُمَّةِ، وَهِيَ مُسْتَكْمَلَةٌ بِبُشْرَىٰ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَلَىٰ لِسَانِ النَّبِيِّ ﷺ كَمَا فِي «الصَّحِيحَيْنِ» وَغَيْرِهِمَا: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَىٰ الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ**»(١)، وَفِي رِوَايَةٍ: «**وَهُمْ كَذَلِكَ**».

يَقُولُ الْعُلَمَاءُ: إِنَّ الطَّائِفَةَ الْمَنْصُورَةَ هِيَ: مِنْ مُجَاهِدٍ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَعَالِمٍ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ، هَذَا يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ بِسِنَانِهِ، وَهَذَا يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ بِقَلَمِهِ وَلِسَانِهِ، وَهَذَا يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ فِي أَرْضِهِ فَلْحًا لَهَا وَإِخْرَاجًا لِمَكْنُونِهَا، وَهَذَا صَانِعٌ فِي مَصْنَعِهِ، وَهَذَا عَامِلٌ فِي مَعْمَلِهِ، كُلٌّ آخِذٌ بِمَا آتَاهُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ مِنْ عَمَلٍ هُوَ عِبَادَةٌ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا مِنَ الطَّائِفَةِ الْمَنْصُورَةِ -إِنْ شَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ-.

«**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَىٰ الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَذَلِكَ**».

فَأَسْرِعْ أَسْرِعْ.. أَسْرِعْ وَأَسْرِعْ، وَحَذَارِ حَذَارِ مِنَ التَّهَاوُنِ، حَذَارِ حَذَارِ مِنَ التَّكَاسُلِ وَالْهَوَانِ؛ فَإِنَّ فِي التَّخَلُّفِ عَنِ الرَّكْبِ الْمُبَارَكِ.. فَإِنَّ فِي التَّخَلُّفِ عَنْهُ الْهَوَانَ وَالْمَذَلَّةَ وَالضَّيَاعَ وَالدَّمَارَ!

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٢٠)، من حديث ثوبان مولىٰ رسول الله ﷺ.

أَسْرِعْ أَسْرِعْ وَالْحَقْ بِهَذَا الرَّكْبِ الْمُبَارَكِ!

حَذَارِ حَذَارِ مِنَ التَّخَلُّفِ، وَكُنْ مِنْ هَؤُلَاءِ مُؤْمِنًا بِاللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، عَامِلًا لِلصَّالِحَاتِ، عَابِدًا للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، غَيْرَ مُشْرِكٍ بِاللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ شَيْئًا.(*).

❀❀❀

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ» - الْجُمُعَةُ ١٦ صَفَر ١٤٢٤هـ| ١٨-٤-٢٠٠٣م.

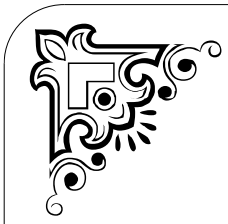

وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ

إِنَّ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، وَكَذَلِكَ التَّمْكِينَ.

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾ [آل عمران: ١٢٦].

«﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾: فَلَا تَعْتَمِدُوا عَلَىٰ مَا مَعَكُمْ مِنَ الْأَسْبَابِ، بَلِ الْأَسْبَابُ فِيهَا طُمَأْنِينَةٌ لِقُلُوبِكُمْ، وَأَمَّا النَّصْرُ الْحَقِيقِيُّ الَّذِي لَا مُعَارِضَ لَهُ فَهُوَ مَشِيئَةُ اللهِ لِنَصْرِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ؛ فَإِنَّهُ إِنْ شَاءَ نَصَرَ مَنْ مَعَهُ الْأَسْبَابُ كَمَا هِيَ سُنَّتُهُ فِي خَلْقِهِ، وَإِنْ شَاءَ نَصَرَ الْمُسْتَضْعَفِينَ الْأَذِلِّينَ؛ لِيُبَيِّنَ لِعِبَادِهِ أَنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ بِيَدَيْهِ، وَمَرْجِعَ الْأُمُورِ إِلَيْهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ﴾: فَلَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ مَخْلُوقٌ، بَلِ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ أَذِلَّاءُ مُدَبَّرُونَ تَحْتَ تَدْبِيرِهِ وَقَهْرِهِ ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾: الَّذِي يَضَعُ الْأَشْيَاءَ مَوَاضِعَهَا، وَلَهُ الْحِكْمَةُ فِي إِدَالَةِ الْكُفَّارِ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ إِدَالَةً غَيْرَ مُسْتَقِرَّةٍ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤]»(١).

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ١٥٤).

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٦٠﴾ [آل عمران: ١٦٠].

«إِنْ يَمْدُدْكُمُ اللهُ بِنَصْرِهِ وَمَعُونَتِهِ فَلا غَالِبَ لَكُمْ، فَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْكُمْ مَنْ فِي أَقْطَارِهَا وَمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعَدَدِ وَالْعُدَدِ؛ لِأَنَّ اللهَ لَا مُغَالِبَ لَهُ، وَقَدْ قَهَرَ الْعِبَادَ وَأَخَذَ بِنَوَاصِيهِمْ، فَلَا تَتَحَرَّكُ دَابَّةٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَلَا تَسْكُنُ إِلَّا بِإِذْنِهِ.

﴿وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ﴾ وَيَكِلْكُمْ إِلَىٰ أَنْفُسِكُمْ ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ﴾، فَلَا بُدَّ أَنْ تَنْخَذِلُوا وَلَوْ أَعَانَكُمْ جَمِيعُ الْخَلْقِ.

وَفِي ضِمْنِ ذَلِكَ الْأَمْرُ بِالِاسْتِنْصَارِ بِاللهِ وَالِاعْتِمَادِ عَلَيْهِ وَالْبَرَاءَةِ مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾: تَقَدُّمُ الْمَعْمُولِ يُؤْذِنُ بِالْحَصْرِ، أَيْ: عَلَىٰ اللهِ تَوَكَّلُوا لَا عَلَىٰ غَيْرِهِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ عُلِمَ أَنَّهُ هُوَ النَّاصِرُ وَحْدَهُ، فَالِاعْتِمَادُ عَلَيْهِ تَوْحِيدٌ مُحَصِّلٌ لِلْمَقْصُودِ، وَالِاعْتِمَادُ عَلَىٰ غَيْرِهِ شِرْكٌ غَيْرُ نَافِعٍ لِصَاحِبِهِ، بَلْ ضَارٌّ.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ: الْأَمْرُ بِالتَّوَكُّلِ عَلَىٰ اللهِ وَحْدَهُ، وَأَنَّهُ بِحَسْبِ إِيمَانِ الْعَبْدِ يَكُونُ تَوَكُّلُهُ»(١).

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٥﴾ [الروم: ٥].

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ١٦٤-١٦٥).

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج: ٤٠].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الملك: ٢٠].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [القصص: ٥-٦].

وَقَالَ تَعَالَىٰ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾ [الكهف: ٨٤].(*).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ: «عَقِيدَتُنَا الْإِسْلَامِيَّةُ: مَقَاطِع مُوجَزَةٌ» (النَّصْرُ مِنْ عِنْدِ اللهِ جَلَّوَعَلَا وَكَذَلِكَ التَّمْكِينُ» - الْخَمِيسُ ١٥ مِنْ شَوَّالٍ ١٤٤٢هـ| ٢٧-٥-٢٠٢١م.

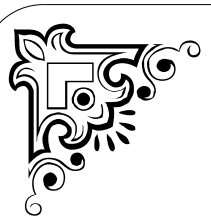

النَّصْرُ وَالْمُسْتَقْبَلُ لِدِينِ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ

اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ يُخْبِرُنَا فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ يُرِيدُونَ أَمْرًا مُحَدَّدًا؛ ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة: ٣٢-٣٣].

آيَتَانِ فِي كِتَابِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَلَىٰ اخْتِلَافِ النَّظْمِ بَيْنَهُمَا، ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الصف: ٨].

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [التوبة: ٣٢].

وَاللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، وَيَحْكُمُ بِمَا يُرِيدُ، وَاللهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ، لِذَلِكَ يَقُولُ رَبُّنَا جَلَّوَعَلَا فِي آيَةٍ أُخْرَىٰ تَحْمِلُ ذَاتَ النَّظْمِ الَّذِي ذَيَّلَ بِهِ رَبُّنَا تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ وَعَقَّبَ بِهِ رَبُّنَا جَلَّوَعَلَا عَلَىٰ إِرَادَتِهِمْ وَإِرَادَتِهِ، عَلَىٰ فِعْلِهِمْ وَعَاقِبَةِ مَكْرِهِمْ، اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ يَقُولُ إِنَّهُ أَرْسَلَ مُحَمَّدًا ﷺ بِغَايَةٍ، وَأَرْسَلَهُ بِوَسِيلَةٍ تُؤَدِّي إِلَىٰ تِلْكَ الْغَايَةِ، يَقُولُ رَبُّنَا جَلَّوَعَلَا: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾: بِهَذَا الِاعْتِقَادِ الصَّحِيحِ، بِالتَّوْحِيدِ الشَّفِيفِ الرَّفِيفِ،

بِهَذَا التَّوْحِيدِ الَّذِي هُوَ إِسْلَامُ الْقَلْبِ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ بَاطِنًا.

اللهُ جَلَّ وَعَلَا يَقُولُ عَنْ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ ﴾: بِهَذَا الْجَانِبِ الْعَمَلِيِّ فِي دِينِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، بِالشَّرَائِعِ الَّتِي شَرَعَهَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ لِأُمَّةِ الْإِسْلَامِ، لِهَذِهِ الْأُمَّةِ الَّتِي تَمْتَدُّ إِلَىٰ أَنْ يُقِيمَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ السَّاعَةَ؛ لِأَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدَ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَهُوَ الرَّسُولُ الْخَاتَمُ، وَكِتَابُهُ هُوَ الْكِتَابُ الْخَاتَمُ، وَشِرْعَتُهُ هِيَ الشِّرْعَةُ الْخَاتِمَةُ، وَمُحَمَّدٌ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ ﷺ.

اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ أَرْسَلَ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ؛ ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾: لِيَجْعَلَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ ظَاهِرًا، لِيُعْلِيَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ؛ حُجَّةً وَمَنْطِقًا، لِيَجْعَلَهُ ظَاهِرًا عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ جِلَادًا وَجِهَادًا وَسَيْفًا وَسَوْقًا، لِيَجْعَلَهُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ظَاهِرًا عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ.

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الفتح: ٢٨]، كَمَا قَالَ فِي (الْفَتْحِ) -سُبْحَانَهُ سُبْحَانَهُ-: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴾، وَلَكِنَّكُمْ لَا تَشْهَدُونَ شَيْئًا عَلَىٰ الْحَقِيقَةِ، وَلَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا لَا فِي عَالَمِ الْغَيْبِ وَلَا فِي عَالَمِ الشَّهَادَةِ، أَمَّا رَبُّكُمُ الَّذِي يَعْلَمُ الْغَيْبَ وَأَخْفَىٰ، يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ.. فَرَبُّكُمْ عَلَّامُ الْغُيُوبِ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، وَيَقْضِي بِمَا يُرِيدُ، وَأَمَّا أَنْتُمْ فَعُرْوَتُكُمُ الْوُثْقَىٰ هِيَ الْإِيمَانُ، وَلَا عَلَيْكُمْ.. لَا عَلَيْكُمْ مِنَ النَّصْرِ، يَأْتِي النَّصْرُ وَقْتَمَا يَشَاءُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَعَلَىٰ الْكَيْفِيَّةِ الَّتِي يُرِيدُ، وَفِي الْمَوْضِعِ الَّذِي يُحِبُّ.

لَا عَلَيْكُمْ مِنْ هَذَا فَلَسْتُمْ مُطَالَبِينَ بِهِ، وَإِنَّمَا الَّذِي عَلَيْكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا مَا عَلَيْكُمْ، الَّذِي عَلَيْكُمْ أَنْ تَكُونُوا مُسْلِمِينَ بِحَقٍّ، وَالْإِسْلَامُ: «الصِّدْقُ مَعَ الْحَقِّ، وَالْخُلُقُ مَعَ الْخَلْقِ»، فَإِذَا تَحَقَّقْتُمْ بِهِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، إِذَا مَا تَحَقَّقْتُمْ بِهِ عَقِيدَةً وَشَرِيعَةً جَاءَكُمْ نَصْرُ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾.

قُضِيَ الْأَمْرُ، وَلَا مُعَقِّبَ لِقَوْلِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، انْتَهَتِ الْمَسْأَلَةُ، قَدْ طُوِيَتِ الصُّحُفُ وَجَفَّتْ بِمَا هُوَ كَائِنٌ كَمَا قَدَّرَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ أَزَلًا.

النَّصْرُ وَالْمُسْتَقْبَلُ لِدِينِ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ، وَلَكِنِ الْمُسْلِمُونَ يَتَرَاوَحُونَ نَصْرًا وَهَزِيمَةً، تَثْبِيتًا وَإِحْبَاطًا، قِيَامًا وَقُعُودًا، تَقَدُّمًا وَتَخَلُّفًا، عُلُوًّا وَتَدَنِّيًا، الْمُسْلِمُونَ يَتَرَاوَحُونَ بَيْنَ هَذَا وَهَذَا عَلَىٰ قَدْرِ التَّمَسُّكِ بِدِينِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩].

وَأَمَّا مَا قَدَّرَهُ اللهُ وَقَضَاهُ فَقَدْ ذَكَرَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ فِي آيَةٍ مُحْكَمَةٍ لَا يَأْتِيهَا الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهَا وَلَا مِنْ خَلْفِهَا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الحشر: ٣٦].

لَا تَبْتَئِسُوا؛ فَقَدَرُ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَافِذٌ، ﴿وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران: ١٣٨].

لَا تَبْتَأِسُوا وَلَا تُحْبَطُوا، وَإِنَّمَا اسْتَعْلُوا بِدِينِكُمْ؛ فَالْمُسْلِمُ كَائِنًا مَا كَانَ أَمْرُهُ

فِي ذِلَّةٍ ظَاهِرَةٍ وَحِطَّةٍ بَادِيَةٍ هُوَ فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ أَعْلَىٰ قَدَمًا وَأَعْلَىٰ كَعْبًا مِنْ أَعْلَىٰ هَامَةٍ فِي الْعَالَمِ مَا دَامَتْ كَافِرَةً، بَلْ إِنَّ أَعْلَىٰ هَامَةٍ فِي الْعَالَمِ مَا دَامَتْ كَافِرَةً مُشْرِكَةً هِيَ أَقَلُّ مِنَ الذُّبَابِ وَأَحَطُّ مِنَ الْحَمِيرِ، بِذَا قَضَىٰ رَبُّكَ؛ لِأَنَّ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ذَكَرَ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ أَنَّ الْكُفَّارَ الْمُجْرِمِينَ الْمُشْرِكِينَ ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، قَضَىٰ رَبُّكَ وَقَدَّرَ أَنَّ هَؤُلَاءِ كَالْهَبَاءِ.

وَإِنَّمَا تَأْتِي الْكَسْرَةُ عِنْدَمَا يَتَخَلَّفُ الْمُسْلِمُونَ عَنِ الْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ الصَّحِيحَةِ الْمُؤَدِّيَةِ إِلَىٰ النَّتِيجَةِ الصَّحِيحَةِ، إِذَا مَا تَخَلَّفَتِ الْمُقَدِّمَاتُ الصَّحِيحَةُ فَقُلْ لِي بِرَبِّكَ: كَيْفَ تَنْتُجُ النَّتَائِجُ الصَّحِيحَةُ، وَالنَّتَائِجُ الصَّحِيحَةُ لَا يُمْكِنُ بِحَالٍ أَبَدًا أَنْ تَنْتُجَ مِنَ الْهَبَاءِ وَلَا مِنَ الْخَطَأِ وَلَا مِنَ الْعَدَمِ، وَإِنَّمَا يُؤَدِّي إِلَىٰ النَّتَائِجِ الصَّحِيحَةِ مُقَدِّمَاتٌ صَحِيحَةٌ، ذَلِكَ بِذَلِكَ، قَضَىٰ رَبُّكَ بِذَلِكَ وَقَدَّرَ، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩].

وَلَكِنْ غَايَةُ مَا هُنَالِكَ أَنَّ الْمُسْلِمَ عَلَيْهِ أَنْ يَتَمَاسَكَ!

عَلَىٰ الْمُسْلِمِ أَنْ يَعْتَزَّ بِإِسْلَامِهِ!

عَلَىٰ الْمُسْلِمِ أَنْ يَعْتَزَّ بِدِينِهِ وَيَقِينِهِ!

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي جَعَلَ الْمَرْءَ مُسْلِمًا، وَالَّذِي رَفَعَهُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ مِنْ حِطَّةِ الْكُفْرِ وَمِنْ وَهْدَةِ الشِّرْكِ إِلَىٰ سُمُوقِ[1] الْإِسْلَامِ وَعِزَّةِ الْإِيمَانِ.

---

(١) سُمُوق: عُلُوّ وَارْتِفَاع.

فَيَنْبَغِي عَلَيْهِ أَنْ يَفْرَحَ بِنِعْمَةِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَهِيَ أَجَلُّ نِعْمَةٍ يُنْعِمُ بِهَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ عَلَىٰ عَبْدٍ دُنْيَا وَآخِرَةً، بِذَلِكَ قَضَىٰ رَبُّنَا جَلَّوَعَلَا فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.

وَجَاءَتِ الْمُفَارَقَةُ الْبَاهِرَةُ إِلَىٰ أُولَئِكَ الَّذِينَ هُمْ كَالْأَطْفَالِ عُقُولًا وَغَرَارَةً وَسَذَاجَةً وَحِطَّةَ عَقْلٍ وَفُسُولَةَ رَأْيٍ، وَانْظُرْ إِلَىٰ تَعْبِيرِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ يُصَوِّرُهُمْ -هَكَذَا- وَهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ الشَّمْسِ بِأَيِّ شَيْءٍ؟!!

بِأَفْوَاهِهِمْ، مَعَاذَ اللهِ! بَلْ إِنَّهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ الْعَالَمِ، وَأَنَّىٰ مِنْ نُورِ الْعَالَمِ مِنْ نُورِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ نُورُ الشَّمْسِ إِنَّمَا هِيَ كَذُبَالَةٍ(١) حَقِيرَةٍ بِجَانِبِ نُورِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، بَلْ هِيَ مِنْ نُورِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ مُسْتَمَدَّةٌ بِأَمْرِهِ قَالَ لَهَا كُونِي فَكَانَتْ، وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

انْظُرْ إِلَيْهِمْ فِي فُسُولَةِ الرَّأْيِ وَضَحَالَةِ الْفِكْرِ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾: أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَيِّ شَيْءٍ؟!! بِأَفْوَاهِهِمْ، ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [التوبة: ٣٢].

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الصف: ٨].

أَبْشِرْ وَلَا تَبْتَأِسْ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ أَنْ تَأْخُذَ بِالْأَسْبَابِ الْمُوَصِّلَةِ إِلَىٰ مَرْضَاةِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ لِيَتَحَقَّقَ فِي كَوْنِ اللهِ وَعْدُ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لِلْمُؤْمِنِينَ، ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ

(١) الذُّبالَةُ: الْفَتِيلَةُ الَّتِي تُسْرَجُ.

مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ﴾ [النور: ٥٥].

النَّصْرُ آتٍ لَا مَحَالَةَ، قَدْ يَتَخَلَّفُ عَنْ جِيلٍ مِنْ أَجْيَالِ الْأُمَّةِ، لَا بَأْسَ وَلَا غَضَاضَةَ، وَلَكِنَّهُ آتٍ لَا مَحَالَةَ، وَالْأُمَّةُ هِيَ لُحْمَةٌ مُتَّصِلَةٌ، وَهِيَ سَلَاسِلُ مُتَمَاسِكَاتٌ فِي حَلْقَاتٍ مُتَشَابِكَاتٍ حَتَّىٰ تَنْتَهِيَ إِلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ وَاسِطَةِ الْعِقْدِ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ تَظَلُّ سَارِيَةً فِي الْأُمَّةِ الْمُسْلِمَةِ إِلَىٰ آدَمَ عليه السلام، وَأَمَّا الطَّرَفُ الْآخَرُ فَإِلَىٰ أَنْ يَرِثَ اللهُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا.

اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ يُرِيدُ مِنَّا عَمَلًا عَلَىٰ قَوَاعِدِ الشَّرْعِ الْأَغَرِّ، وَاللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ لَا يُطَالِبُنَا بِالنَّتَائِجِ، يَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ، وَيَحْكُمُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بِمَا يُرِيدُ، وَاللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ يُؤْتِي النَّصْرَ مَنْ يَشَاءُ، وَالنَّصْرُ ظَاهِرٌ وَبَاطِنٌ، وَاللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ طَالَمَا آتَىٰ الْمُؤْمِنِينَ تَمَاسُكًا، وَنَحَّىٰ عَنِ الْمُسْلِمِينَ التَّخَاذُلَ؛ فَقَدِ انْتَصَرُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ.

وَأَمَّا الْكَسْرَةُ الظَّاهِرَةُ.. وَأَمَّا الْكَبْوَةُ الْبَادِيَةُ فَإِنَّ لِكُلِّ سَيْفٍ نَبْوَةً، وَلَكُلِّ جَوَادٍ كَبْوَةً، وَلَا عَلَىٰ الْمَرْءِ إِذَا مَا كَبَا[1] أَنْ يَقُومَ وَأَنْ يَسْتَوِيَ مُعْتَدِلًا، وَأَنْ يُثَبِّتَ الْأَقْدَامَ عَلَىٰ نَهْجِ الطَّرِيقِ، وَاللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ نَاصِرُهُ مَا تَمَسَّكَ بِنُصْرَةِ رَبِّهِ، وَاللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ مُؤْتِيهِ مَا آتَىٰ السَّابِقِينَ مِنَ التَّثْبِيتِ وَالتَّمْكِينِ.

---

(١) كبا الشَّخصُ أو الحيوانُ: سقَط علىٰ وجهه، عَثَر، فقَد توازنَه في سيره، زلّ كبا الحصانُ.

وَكَمَا قَالَ الشَّاعِرُ الْقَدِيمُ:

اشْـــتَدِّي أَزْمَـــةُ تَنْفَرَجِـــي قَـــدْ آذَنَ صُـــبْحُكِ بِـــالْبَلَج

وَاللَّيْلُ يَكُونُ سَوَادًا وَأَعْظَمُ مَا يَكُونُ بُهْمَةً قَبْلَ انْبِلَاجِ الْفَجْرِ بِنُورِهِ الشَّفِيفِ.

فَلَا تَيْأَسُوا وَلَا تُحْبَطُوا -عِبَادَ اللهِ-، وَتَمَسَّكُوا بِدِينِ اللهِ، فَأَنْتُمْ عَلَىٰ الْحَقِّ!

وَهَذِهِ أُمَّةٌ مَنْصُورَةٌ لَا يَضُرُّهَا مَنْ خَذَلَهَا إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.(*).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ» - الْجُمُعَةُ ١٦ صَفَر ١٤٢٤هـ| ١٨-٤-٢٠٠٣م.

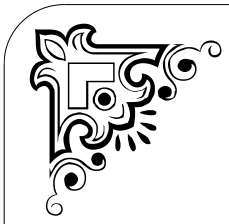

طَرِيقُ النَّصْرِ وَالْعِزَّةِ

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ! النَّصْرُ بِأَسْبَابِهِ، وَالطَّرِيقُ مَعْهُودٌ وَمَعْرُوفٌ؛ تَخَلٍّ عَنِ الْمَعَاصِي بِجُمْلَتِهَا، وَعَوْدَةٌ إِلَىٰ دِينِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ بِجُمْلَتِهِ، وَتَآلُفٌ وَتَحَابٌّ، وَتَنَاصُرٌ وَتَآزُرٌ، وَرِفْقٌ وَلِينٌ، وَرَحْمَةٌ وَسَمَاحَةٌ، وَحُبٌّ وَمَوَدَّةٌ، وَتَطْلِيقٌ لِلْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ، وَالْحِقْدِ وَالْحَسَدِ وَالشَّحْنَاءِ، وَتَمَسُّكٌ بِسُنَّةِ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ، أَمَا وَإِلَّا فَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً.(*).

اللَّهُمَّ ثَبِّتْ أَقْدَامَنَا، وَاهْدِ قُلُوبَنَا، وَاجْبُرْ كَسْرَنَا، وَارْحَمْ ضَعْفَنَا، إِنَّكَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ.(*/٢).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ».

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ» – الْجُمُعَةُ ١٦ صَفَر ١٤٢٤هـ| ١٨-٤-٢٠٠٣م.

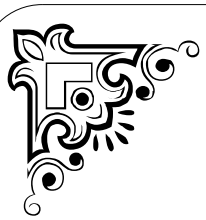

الْفِهْرِسُ

مُقَدِّمَةٌ ٣

الْإِسْلَامُ دِينُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي أَرْضِهِ ٤

ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً تُنْصَرُوا! ٨

زُهُوقُ الْبَاطِلِ وَنَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ١٠

الْمَعَاصِي سَبَبُ هَزِيمَةِ الْأُمَّةِ وَكَسْرَتِهَا ١٦

هَزِيمَةُ الْمُسْلِمِينَ فِي بَعْضِ حِقَبِ التَّارِيخِ.. الْأَسْبَابُ وَالْعِبَرُ ٢٥

أَسْبَابُ النَّصْرِ وَشُرُوطُهُ ٢٨

وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ ٣٣

النَّصْرُ وَالْمُسْتَقْبَلُ لِدِينِ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ ٣٦

طَرِيقُ النَّصْرِ وَالْعِزَّةِ ٤٣